



MAISON
DU FUTUR

بيت المستقبل

أوراق سياسية

- رقم ٢٢ -

أيلول ٢٠١٩

لبنان والسير على حبل مشدود:

تحقيق التوازن بين تأثير المحاور
المتنازعة

جوزيف باحوط



KONRAD
ADENAUER
STIFTUNG

ملاحظة: إن مضمون هذه الورقة
لا يعكس بالضرورة الرأي الرسمي
لمؤسسة كونراد آديناور ومؤسسة
بيت المستقبل. وعليه، فإن مسؤولية
المعلومات والآراء الواردة فيها تقع
على عاتق الكاتب وحده.

لبنان والسير على حبل مشدود: تحقيق التوازن بين تأثير المحاور المتنازعة

يعيش لبنان منذ عقد من الزمن في عين الصراع الجيواستراتيجي الذي يدور في المنطقة بين دول عدة كالسعودية وإسرائيل وإيران والولايات المتحدة وروسيا، إذ تحاول كلٌّ منها تعزيز نفوذها فيه عبر التأثير على ميزان القوة بين مختلف الأطراف الفاعلة الداخلية. وفي ظل انسحاب الولايات المتحدة من المنطقة مع اعتماد إدارة الرئيس الأسبق باراك أوباما لسياسة القيادة من الخلف وإدارة الرئيس دونالد ترامب لمبدأ أميركا أولاً، وبعد تراجع اهتمام السعودية ببلاد الأرز، نجحت إيران في جذبها إلى فلك محور الممانعة في المنطقة بعد أن مكّنت ذراعها المحلي حزب الله من الإمساك بمفاصل الدولة السياسية والأمنية، فبات بيضة القبان في رسم السياسات الداخلية كما الخارجية للبلاد.

إلا أن الاهتمام الأميركي بلبنان عاد مؤخراً من بوابة محاولة واشنطن محاصرة إيران والحدّ من تمددها في المنطقة، وشكلت التحذيرات التي وجهها وزير الخارجية الأميركي مارك بومبيو إلى الحكومة اللبنانية خلال زيارته الأخيرة إلى بيروت مؤشراً لتحول لبنان مجدداً إلى ساحة لتصفية الحسابات الإقليمية والدولية، فأصبح مستقبله مرهوناً بما ستسفر عنه محاولات إعادة رسم خريطة النفوذ في المنطقة.

على خلفية هذه المشهدية، عقد "بيت المستقبل" الندوة الثانية من ندوات "لعبة الحرب والمحاكاة" الثلاث التي ينظمها بالتعاون مع مؤسسة-كونراد-آديناور/مكتب بيروت، تحت عنوان: "لبنان والسير على حبل مشدود: تحقيق التوازن بين تأثير المحاور المتنازعة". ضمت الندوة جلستين عقدتا تحت إدارة خبير رئيس وفق قاعدة تشاتام هاوس، وانطلقت من فرضية انخياز لبنان في الصراع الذي تدور رحاه في المنطقة إلى محور الممانعة، وحاولت تقييم تداعيات هذا التوضع على توازنه السياسي وفق استعراض ثلاثة سيناريوات: الأفضل والأسوأ والأكثر ترجيحاً. في ظل هذه الفرضية، يتخلى لبنان عن حياده التقليدي كما عن سياسة النأي بالنفس تجاه النزاعات الإقليمية والدولية، ويتحالف مع محور يضم إيران ووكلائها في المنطقة (أبرزهم حزب الله)، والنظام

السوري مع فسحة لأطراف آخرين مثل تركيا وروسيا وقطر يكونون جزءاً من هذا المحور أو لاعبين مقربين إليه.

السؤال الأول هو تحديد كيف انخرفت بوصلة السياسة اللبنانية نحو الاتجاه الآخر: هل كان هذا الانحراف طوعياً أم قسرياً؟ هل جرى تدريجياً أم دفعة واحدة؟

السؤال الثاني يدور حول تداعيات هذا الاصطفاف على الوضع في لبنان: هل سيؤدي إلى مواجهة جديدة بين حركتي ٨ آذار و ١٤ آذار؟ هل سيسفر عن اندلاع نزاعات تترجم تصاعداً في الخروقات الأمنية؟

واستطراداً، كيف سيكون رد فعل اللاعبين الإقليميين والدوليين المعارضين لتموضع لبنان الجديد؟ هل ستفرض مثلاً دول الخليج عقوبات عليه جراء انخيازه إلى محور الممانعة؟ هل ستعاقبه الولايات المتحدة وإلى أي مدى؟ وكيف سترد روسيا على ذلك؟ هل سيلعب الاتحاد الأوروبي دور الوسيط من أجل إنقاذ لبنان من ذيول هذا الاستقطاب المميت؟

أخيراً، هل ستعتبر إسرائيل هذا التموضع سبباً تتخذة ذريعة لشن حرب عقابية-استباقية واسعة النطاق على لبنان؟

١- كيف انزلق لبنان إلى محور المقاومة؟

كيف انخرق لبنان نحو هذا المحور؟ هل جرى ذلك تدريجياً أم دفعة واحدة بفعل قرار مسبق؟ هل فرضت حركة ٨ آذار هذا الاصطفاف على باقي الأطراف في البلد بسبب ضعف حركة ١٤ آذار وشبه انخيارها نتيجة للتطورات الداخلية والإقليمية؟ ما هي العوامل التي مكّنت حركة ٨ آذار من فرض هذا الخيار؟ هل هي عوامل داخلية كترسانة حزب الله أم ثمة عوامل خارجية كانسحاب الولايات المتحدة من منطقة الشرق الأوسط وغياب الدعم السعودي للبنان وعودة روسيا إلى المنطقة بعد إنقاذها نظام بشار الأسد؟

أ- حركة ٨ آذار:

تعتبر حركة ٨ آذار أن العامل الأبرز وراء انزلاق لبنان إلى محور المقاومة هو تفكك حركة ١٤ آذار، وقد تجلّى ذلك أكثر ما تجلّى بما يسمى "التسوية الرئاسية" وتشردم القوى السنية الفاعلة. وتوج ذلك بالانتخابات التشريعية التي جرت وفقاً للنظام النسبي وأفرزت نتائجها عن أكثرية برلمانية لصالح تحالف ٨ آذار. يضاف إلى ذلك قرار حزب الله الانخراط بشؤون البلاد الداخلية ومنحها الأولوية في أجندته.

بالنسبة إلى العوامل الخارجية، ترى حركة ٨ آذار أن العديد منها كان وراء تموضع لبنان إلى جانب محور المقاومة، أهمها صمود نظام بشار الأسد والذي أعطى زخماً كبيراً لتحالف ٨ آذار، والانسحاب الأميركي من المنطقة بعامة فضلاً عن الأداء السعودي السيء والذي بلغ ذروته باحتجاز رئيس الوزراء سعد الحريري وإجباره على الاستقالة مع كل الذبول التي نتجت عن هذه الخطوة.

كل هذه التطورات أسفرت عن تموضع لبنان في فلك محور المقاومة، وما عزز ذلك احتمال دعم روسيا لهذا التوجه كلاعب فاعل على الساحة الإقليمية.

ب- حركة ١٤ آذار:

من الواضح أن تحالف ١٤ آذار يمر بفترة عصيبة بسبب الانقسامات الداخلية التي هزّت وحدته، فكيف والحال هذه يمكنه مواجهة اصطفايف لبنان الجديد إلى جانب محور المقاومة؟

يعتبر ممثلو حركة ١٤ آذار أن هذه الحركة ليست كياناً بل روحية تجسد نبض اللبنانيين، ولهذا يعتقدون أن التطورات الأخيرة قد تساهم في إعادة الوحدة إلى صفوفها خصوصاً في ظل تصاعد التوتر بين الولايات المتحدة وإيران وسياسة العصا الغليظة التي تعتمدها واشنطن ضد طهران.

ومع ذلك، على المرء أن يعترف أن توصيف ممثلي حركة ٨ آذار لما آلت إليه حال حركة

١٤ آذار هو توصيف واقعي وصحيح، علما أن قوى ٨ آذار مسؤولة عن وضع البلاد المتدهور ويقع على عاتقها اختراع سياسات جديدة لمواجهة التحديات الاقتصادية التي تعاني منها. على الصعيد الإقليمي، يعيش فريق ٨ آذار في حنين إلى فترة الرئيس الأمريكي أوباما حين انفتحت الولايات المتحدة على إيران. اليوم مع إدارة الرئيس ترامب وتصعيده ضد إيران، انتهت فترة السماح بالنسبة إلى محور الممانعة بعامة وحركة ٨ آذار بخاصة، وستواجه هذه الأخيرة نكسة في الداخل والخارج نتيجة للموقف الأمريكي.

في هذا الإطار، يبقى التعويل على انحلال تحالف ١٤ آذار خاطئ لأنها قد تعيد اليوم تجميع نفسها ورض صفوفها.

ج- سوريا:

هل يعني ذلك أن النظام السوري مارس على لبنان ضغوطات مباشرة أو غير مباشرة للانحياز إلى محور المقاومة أم أن هذا الانحياز جاء نتيجة لقرار سيادي؟ هل النظام السوري قادر حاليا على فرض خياراته على لبنان أم أنه ما يزال يمر بفترة التعافي؟

لا يشكل لبنان اليوم أولوية بالنسبة إلى سوريا لا سيما في ظل التحديات الكبيرة التي تواجهها لجهة وجود قوى إقليمية ودولية كبيرة على أراضيها. إلى هذا، لا بد من الإشارة إلى أن العلاقة بين النظام السوري وحزب الله قد تغيرت بحيث لم يعد هذا الأخير فصيلا تابعا للنظام، بل بات النظام يعتمد عليه كما على إيران لتأمين ديمومته.

يدرك الأسد أن الوقت لصالحه وأن الولايات المتحدة لا تولي سوريا الكثير من الاهتمام إلا من منظور الوجود الإيراني فيها. لذلك لن يعرض هذه الديناميكية للخطر عبر التدخل المفرط في خيارات لبنان. إلى هذا، ما زال النظام السوري يمتلك العديد من الأوراق ليلعب بها ويقاوض عليها، كالتوتر الإيراني الروسي والتوتر الإيراني الخليجي والتوافق الروسي الإسرائيلي.

د- إيران:

تقوم سياسة ايران الرسمية على أساس دعم خيارات حلفائها دون التدخل بشؤون بلادهم الداخلية، وتعتبر إيران أن من يتدخل في الشؤون الداخلية لبلاد المنطقة هي الولايات المتحدة وبالتنسيق مع السعودية. إن الأوضاع الراهنة في لبنان ليست نتيجة لخيارات إيرانية إنما لتخلي السعودية عن حلفائها فيه. باختصار، نحاز لبنان إلى محور المقاومة تدريجياً دون أي ضغط سوري أو إيراني.

٢- ردود فعل القوى الإقليمية والدولية:

أ- روسيا:

السؤال البديهي الأول الذي يطرح هو هل تعتبر روسيا جزءاً من محور المقاومة أم لا؟ إلى هذا، ما هي ماهية الدور الذي تلعبه في لبنان وما هو موقفها من توجه لبنان نحو محور المقاومة؟ هل لعبت روسيا دوراً في الدفع باتجاه هذا التوجه أم أنها مجرد مراقب وسيط وحيادي؟ هل يمكن اعتبار روسيا اللاعب الدولي الذي سوف يضمن عودة لبنان إلى حياده وانسحابه من هذا المحور؟

شهدت العلاقة بين البلدين مؤخراً تطوراً ملحوظاً خصوصاً على الصعيد الاقتصادي كما أظهرت ذلك الزيارة الأخيرة التي قام الرئيس ميشال عون إلى موسكو. فنتائج هذه الزيارة ألقّت الضوء على دوافعها: عقد اتفاقيات تجارية ثنائية مختلفة خصوصاً في مجال الطاقة، (مشاركة شركة روسية في الكونسورسيوم الخاص باستخراج النفط والغاز وفي إعادة تأهيل منشآت النفط في طرابلس)، مساعدة لبنان في أزمة الكهرباء، إضافة إلى تعهد بحماية الأقليات في المنطقة لا سيما المسيحيين، وهو أمر فائق الأهمية بالنسبة إلى لبنان.

أنفذ التدخل الروسي في سوريا النظام الشرعي وألحق الهزيمة بالإرهاب، وقد ساند حزب الله موسكو في هذه المهمة. وعليه ستساند روسيا الحزب في تحطيم جميع الضغوطات التي يتعرض لها. إلى هذا، تلعب روسيا دوراً محورياً في تأمين عودة اللاجئين السوريين إلى

بلادهم، ووجهت مؤخراً دعوة إلى لبنان للمشاركة في مؤتمر الأستانا كمرقب كي يكون على تماس أكثر مع الحل السياسي للأزمة السورية وموضوع عودة النازحين السوريين وإعادة إعمار سوريا.

إلى هذا، أيدت روسيا إعلان بعبدا، وسبق لها أن وافقت على كل القرارات الدولية التي تدعو إلى تحييد لبنان. إذا اختار لبنان الانضمام إلى محور المقاومة، لا يمكن روسيا التدخل في شؤونه لأن اللبنانيين وحدهم هم أصحاب القرار في تحديد مصلحتهم، علماً أن لروسيا هم أساس وهو الحؤول دون وقوع حرب إقليمية. تؤمن روسيا أن إيران دولة عظيمة تستحق مكانتها في المنطقة، وعليها أن تكون جزءاً من الحل وليس المشكلة. هناك تباينات بيننا فيما يتعلق بسوريا، لكن سيناريو التصعيد الإقليمي هو اسوأ ما قد يحصل للمنطقة: اذا حدثت ضربة ضد إيران في المنطقة، إن في سوريا أو في لبنان، ستتفقم الأمور أقله بالنسبة إلى اللاجئين.

ب- الولايات المتحدة:

منذ انتخاب دونالد ترامب، تغيير الموقف الأميركي. إن السياسة الخارجية التي اعتمدها إدارة أوباما تجاه الشرق الأوسط تميزت بالتخلي عن حلفاء أميركا التقليديين في الخليج ولبنان وحتى سوريا، في سبيل إبرام الاتفاق النووي مع إيران. بالنسبة إلى الإدارة الحالية، فإن نقطة انطلاق سياستها تجاه لبنان هي استحالة قبول سيطرة حزب الله عليه ككيان سياسي، في وقت يخوض فيه معارك في سوريا ويدعم الحوثيين في اليمن. العلاقات مع لبنان تبقى قوية لأنه لا بديل للولايات المتحدة عنه في المنطقة، لكن واشنطن لن ترضى بأن يبقى مركزاً ومنصة لضرب النفوذ الأميركي فيه وفي الإقليم. إن الولايات المتحدة ترى اليوم أن لا أصدقاء أكثر لها في لبنان، علماً أنها تقدم مساعدات عسكرية ولوجستية إلى الجيش اللبناني وتدعم صمود البلاد في تحمل أعباء اللاجئين في وقت لم تدفع فيه روسيا قرشاً واحداً لمساعدتهم في محنتهم كما أنها عرضت على الجيش شراء أسلحة ولم تقدمها له.

تعتبر الولايات المتحدة أن الضربة القاضية التي أصابت لبنان ودفعت به نحو محور

المقاومة هي ورقة التفاهم التي أبرمها حزب الله مع التيار الوطني الحر، وستبقى سياستها نحوه هي سياسة "العصا" ولن تسمح بسيطرة إيران عليه. سيكون من الصعب على الولايات المتحدة أن تستمر بدعم لبنان وبتقديم المساعدات له في ظل دورانه في فلك محور الممانعة.

إن الولايات المتحدة لا تعتبر روسيا دولة صديقة، وفي مراجعة سريعة للتقرير الأميركي حول استراتيجية الاستخبارات الوطنية للعام ٢٠١٩، حددت واشنطن غريمين لها هما روسيا والصين، ودولتين مارتقتين تزعزعان الاستقرار الإقليمي والدولي هما إيران وكوريا الشمالية. إن ساحة الصراع مع إيران هي الشرق الأوسط، حيث استفادت موسكو وطهران من الفراغ الذي تركته الإدارة السابقة.

على لبنان أن يتذكر أنه في العام ٢٠٠٦، لم تتمكن إسرائيل من القضاء على حزب الله بسبب الضغوطات الأميركية التي مورست عليها، وإذا نشبت اليوم أي حرب جديدة بين الطرفين، ستمتنع الولايات المتحدة عن ممارسة ضغوطات مشابهة وستترك لإسرائيل حرية التصرف الكاملة. إذا ما رأت إسرائيل اليوم أن الحفاظ على أمنها القومي يقضي عليها تدمير حزب الله فنحن لن نقول لها لا. من جهة أخرى، بالنسبة إلى الولايات المتحدة تأتي المصلحة الأميركية بالمرتبة الأولى تليها المشروعية الدولية. القانون الأميركي يعلو على أي قانون دولي، إلا إذا قررت الإدارة الأميركية خلاف ذلك لأنه يؤدي إلى النتيجة التي تسعى إليها. لا بد من الإشارة إلى أنه في حال التصعيد في جنوب لبنان، فقرار الحرب سيكون في أيدي إسرائيل وليس إيران وإذا اتخذته ستدعمه واشنطن.

ج- الاتحاد الأوروبي:

يعترف الاتحاد الأوروبي أن قدراته محدودة جداً في المنطقة كما تأثيره. إن الهدف الأول للاتحاد الأوروبي هو الحفاظ على الاتفاق النووي، إذ لا مصلحة له بأن تمتلك طهران قدرات نووية، ويعمل على الإبقاء على الحد الأدنى من علاقته معها. من جهة أخرى، تمتلك إيران ثاني أكبر مخزون للغاز في العالم، ولا نريد أن تحتل روسيا مكانها في حال خسرت مكانتها هذه. يحاول الاتحاد الأوروبي الحفاظ على علاقته مع إيران للعب دور

الوسيط بينها والولايات المتحدة كما بينها ودول الخليج، وبين أميركا وروسيا.

ثمة أمر آخر يقلق الاتحاد الأوروبي وهو مسألة اللاجئين السوريين في لبنان. تدل المؤشرات على أنهم يحاولون الدخول إلى أوروبا والحوول دون ذلك يشكل الدافع الأساس لسياسة دعم استقرار لبنان التي نتبناها. ما نخشاه هو أن يأتي يوم لا يعود فيه الاستقرار في لبنان أولوية في سياسة الولايات المتحدة. من جهة أخرى، المصالح الأوروبية مع الولايات المتحدة كبيرة جداً ومهمة، ولن يدخل الاتحاد الأوروبي في مواجهة مع أميركا من أجل لبنان.

إن المخاوف كبيرة لأنه في حال اندلاع حرب بين لبنان وإسرائيل لن تكون الأجهزة الأمنية والجيش اللبناني ووزارة الدفاع هذه المرة بمنأى عن الضربات الإسرائيلية.

د- إيران:

إن المشروع الأميركي في المنطقة هو مشروع سلطوي يحاول السيطرة على المنطقة وأميركا هي عدوتنا، ولأن هويتنا مرتبطة بالمقاومة سنكون أقوى. إن الولايات المتحدة هي التي نكست بالتزاماتها وخرجت من الاتفاق النووي وفرضت عقوبات خارج الأمم المتحدة. إن هدف أميركا الرئيس من دعم الجيش اللبناني هو السيطرة على لبنان وتقوية إسرائيل عبر تحديد سقف لقوة الجيش اللبناني، وقد أعلنت إيران مراراً وتكراراً استعدادها لتقديم المساعدة إلى الجيش.

بالنسبة إلى المشروع السعودي تجاه لبنان، ترى إيران أنه مشروع تخريبي وتابع لأميركا وهو قائم على السلبية والسياسيات المضادة، وسيأتي على لبنان بالدمار.

بالنسبة إلى العلاقات مع روسيا، فإيران تتعاون معها بشكل جيد باعتبارها دولة مهمة في العالم، ولكن قرارنا مستقل بالنسبة إلى المقاومة وإذا ما قررت روسيا مواجهة إيران فهذه الأخيرة ستواجهها.

في حال نشوب مواجهة عسكرية مع إسرائيل في سوريا و/أو لبنان، وعلى الرغم من أن

لا إيران ولا حزب الله يسعيان إلى حرب شاملة معها، فحزب الله بات اليوم يمتلك من الأسلحة ما يحوله تكبيد إسرائيل خسائر فادحة. الاعتقاد أن تجربة حرب عام ٢٠٠٦ ستكرر هي فرضية تغيب عنها الحكمة.

هـ - إسرائيل:

تعتبر إسرائيل أن لبنان بات يدور في الفلك الإيراني، والخيار التصعيدي هو بأيدي إيران ورأي الأطراف اللبنانية غير مؤثر. في حال التصعيد العسكري، لا يوجد في لبنان اليوم أهداف ممنوعة على إسرائيل، لأنها تعتبر أن الحكومة اللبنانية وحزب الله كيان واحدة، وهي تدعم دعماً كاملاً العقوبات التي فرضتها الولايات المتحدة على كيانات وأشخاص في لبنان مرتبطين بحزب الله. بالنسبة إلى مسرح العمليات، ترى إسرائيل أن الجنوب السوري هو امتداد للجنوب اللبناني، وستضرب كل موقع إيراني على طول هذه الحدود، وستنسق ميدانيا ضرباتها مع روسيا كما ستنسق مع بعض الدول العربية التي تستشعر الخطر الإيراني عليها.

٣- ماذا عن سيناريو شن إسرائيل عملية عسكرية لمواجهة انحياز لبنان إلى محور المقاومة؟

أ- إسرائيل:

وفي حال التصعيد، ستجري الحرب وفقاً لسيناريوات ثلاثة:

- حرب شاملة جوية وبرية تشن من الحدود اللبنانية والسورية
- ضرب أهداف في الداخل لشل قدرات حزب الله وإيران في نقل الأسلحة
- فرض حصار مع ضرب الأهداف في الداخل بما يؤدي إلى تفجير الوضع في لبنان وعودة الاقتتال الداخلي إليه عبر اختراق البنية اللبنانية.

تعتقد إسرائيل أنه من غير المرجح أن تحصل أي مفاوضات بين الولايات المتحدة وإيران، فيما ترى أن فرص اندلاع حرب مع لبنان مرتفعة جداً، لا سيما وأن القضاء على النفوذ السياسي لحزب الله في لبنان وإخراجه من الحياة السياسية لن يتم إلا عبر الوسائل العسكرية.

إن الهدف الرئيس للضربات الإسرائيلية سيكون فصل حزب الله عن مؤيديه وعن حلفائه خصوصاً المسيحيين منهم، فتحالفهم معه سيزيد من خطر الاستهداف العسكري لمناطقهم لحثهم عبر إحداث أضرار مؤلمة للانفصال عنه.

ب- إيران:

تعتقد إيران أنه في حال شنت حرب عسكرية ضدها مباشرة أم غير مباشرة، لن تلعب روسيا دور الوسيط أو المدافع عنها بل ستسعى إلى تحقيق مصالحها. هناك أهداف مشتركة بين الطرفين في سوريا، لكن روسيا تستفيد من العقوبات المفروضة على إيران. لذلك في حال اندلاع الحرب إيران ستتخذ القرارات التي تلائم مصالحها الوطنية والاستراتيجية.

أما إذا شنت إسرائيل هجوماً على لبنان، فستضطر إلى إيقافه بغضون أيام بسبب الأسلحة المتطورة التي باتت مجوزة حزب الله. إن موازنة إيران الدفاعية هي الأعلى في المنطقة ولن تتنازل عن أي ورقة تمتلكها خصوصاً لبنان وسوريا.

ج- المحور السعودي-الإماراتي:

إن سيناريو اندلاع حرب هو الأسوأ بالنسبة إلى المنطقة، لكنه من جهة أخرى قد يصب في مصلحة دول الخليج. يبقى أن المشكلة الرئيسة التي سينبغي على إسرائيل التعامل معها في حرب كهذه هي صواريخ حزب الله، ومن المرجح أنها ستشن هجوماً برياً صاعقاً وسريعاً لكي ترتاح من خطر الصواريخ، ولن تتردد في تدمير الجنوب اللبناني والإمساك بنقاط العبور إليه ولن تسمح لأحد بالعودة إلى الجنوب قبل حل حزب الله. بمعنى آخر، ستلقي بالكرة للجانب اللبناني وتنقل المشكلة إليه. من المتوقع أيضاً

أن تضرب إسرائيل مواقع الجيش اللبناني والمؤسسات الحكومية والمرافق الحيوية. هذا السيناريو خطير جداً على لبنان وعلى الجميع العمل لمنع الوصول إليه.

خلاصة وتوقعات:

توافقت نتائج جلسة المحاكاة مع القراءة الواقعية للأوضاع السائدة في لبنان لجهة صعوبة كبح انزلاق لبنان التدريجي باتجاه محور المقاومة في المنطقة، وأن لا يوجد أي عامل داخلي قادر على وقف هذا الانزلاق.

ومع ذلك، فإن ردود الفعل الناتجة عن "غريزة البقاء" لدى الأطراف الأخرى قد تحول دون التموضع الكامل والصارخ للبنان في فلك هذا المحور وتتصدى للعواقب الوخيمة التي يمكن أن يجرها على البلاد.

على الساحة الداخلية، يدرك حزب الله جيداً أن الحفاظ على الدولة اللبنانية، أقله في الحد الأدنى، يبقى درع حمايته الأساس. ولذلك يتمسك بصيغة "التوافق المفروض" الذي انتهى إلى إجبار الأطراف السياسية الفاعلة كافة على اعتمادها مستنداً إلى حلفه مع الرئاسة وتفاهمه مع التيار الوطني الحر كضمانة أقله على المدى القريب.

إن معارضي حزب الله ليسوا في حال تسمح لهم بتحدي هذا الواقع أو محاولة تغييره. فتمسك رئيس الوزراء سعد الحريري بتفاهمه مع الرئيس ميشال عون فضلاً عن حرصه على البقاء في منصبه لسنوات طويلة، سيمنعانه من محاولة المس بميزان القوى الراهن بعمل يترجم سياسيات من الممكن أن يكون لها بعداً خارجياً. وفي الإطار نفسه، لا يمتلك ركناً حركة ١٤ آذار الأخران ما يلزم من مقدرات للضغط على الحريري للتراجع عن مواقفه هذه، ولا على تغيير واقع الأمور.

على الصعيدين الإقليمي والدولي، وإذا نظرنا بتمعن إلى كل الديناميكيات والتطورات التي يشهدها الخليج، نتأكد أن السياسة الأميركية الراهنة تجاه إيران ما تزال تقوم على

مواصلة فرض الخناق عليها ببطء لإجبارها على الجلوس إلى طاولة المفاوضات. وطالما الحال ستستمر على هذا المنوال، فلا الرئيس ترامب ولا إيران يسعيان إلى مواجهة عملية وحرب شاملة، الأول لأسباب داخلية وانتخابية، والثانية لأسباب وجودية.

مثل هذا السياق، لا يمكن للولايات المتحدة الأميركية ولا لحلفائها الخليجيين الضغط على أصدقائهم ووكلائهم في لبنان، وليسوا مستعدين لفتح جبهة في هذا البلد أقله قبل أن يتضح المشهد في مياه الخليج.

ما يمكن توقعه هو مواصلة ممارستهم للضغط البطيء على شكل "رسائل تذكير"، مثل الإجراءات المتفرقة المتخذة من حين إلى آخر والعقوبات المفروضة، أو بعض الإشارات التي يرسلها التحالف الخليجي السعودي-الإماراتي بشكل دوري إلى الحريري يهدف ردع أي انزلاق كامل نحو محور المقاومة. إلا أن كل ذلك لا يشكل خطراً على حزب الله بل أنه يعرب في الواقع عن ضعف الأطراف المناهضة له ومحدودية قدراتها على مواجهته.

ومع ذلك قد تتغير اللعبة تغيراً جذرياً إذا شهد العامان المقبلان اللذين يفصلاننا عن انتهاء رئاسة ترامب أو تجديدها، سيناريو جدياً للمواجهة على نطاق واسع في المنطقة. هذا احتمال وارد في حال وقوع فعل مارق جاد وغير منضبط يؤدي إلى منحدر زلق لا يمكن لأحد وقفه، أو إذا أصبح القرار بيد المحافظين المتشددين لدى كلا الجانبين.

إذا وقع هذا الاحتمال، ستخلع القفزات وسيترجم ذلك في لبنان في مرحلة أولى وهو القابع في خضم الديناميكيات المتنازعة مع انحياز واضح إلى محور المقاومة، قبل أن تتمكن قوى أخرى من تغيير تموضعه هذا إذا استطاعت.

ثمة عامل آخر مهم هنا وهو رد فعل نظام الأسد في حال تم تثبيت الوضع في سوريا وفقاً لمعادلة أنه انتصر. كيف سيتصر "بقاؤه" في السلطة على الساحة اللبنانية، وأي فعل عقابي تحببه دمشق للبنان حيث الرغبة في الانتقام من لبنان ومن الطبقة السياسية فيه مترسحة؟

إذ كان الأسد يواجه اليوم العديد من المشاكل وإذا كان اهتمامه منصب راهناً على

استعادة السيطرة على الأراضي السورية كافة وعلى شعبه، وإذا كان ما يزال حالياً مقيداً من قبل راعيته اللتين انقذتا نظامه روسيا وإيران، فكما كان الأمر دوماً بالنسبة إلى دمشق، يبقى الوقت حليفها الأساس وسلاحها الأقطع. في هذا الإطار بالذات، يشير غياب عوامل الصمود في لبنان أو ضعفها قلماً كبيراً لأن انزلاق لبنان "الطبيعي" إلى محور المقاومة قد يتسخ ويترحم بتحول بطيء وتدرجي لخياراته السياسية لصالح محور تكون دمشق قد كرس لها مكاناً فيه.

ولا بد من الإشارة هنا إلى غياب أي سياسة أو استراتيجية أميركية واضحة وثابتة لمواجهة تأثير هذا العامل السوري إن كان في لبنان أو سوريا نفسها. فحتى الآن السياسة الوحيدة الواضحة والمتكاملة لواشنطن في المنطقة هي السياسة التي تعتمد على اتجاه إيران، حيث يشكل كل من لبنان وسوريا وحتى العراق أجزاء عرضية منها. وتالياً، تتغير المواقف الأميركية من مختلف جوانب السياسة الداخلية لهذه الدول وفقاً لما يقتضيه تحقيق هدفها الرئيس وهو احتواء إيران وردعها. في هذا الصدد، بات جلياً أن ما يسمى "العملية السياسية" في سوريا ومصير النظام ومستقبله إلخ...، كلها مسائل تم تلزيمها إلى روسيا مع موافقة إسرائيل العلنية أو الضمنية، الأمر الذي يقودنا إلى المنطق الذي تحدثنا عنه أعلاه ومفاده أن الاتجاهات والديناميات الداخلية في لبنان تعمل بشكل مستقل إلى حد كبير وتؤدي إلى ترسيخ واقع كذاك الذي جرت مناقشته في جلسة المحاكاة واللعبة الديبلوماسية.

يبقى القول والاعتراف أنه في ظل سيناريو كهذا، الوسائل المتاحة أمام مختلف القوى في لبنان محدودة وقد تكون مدمرة إذا ما استخدمت. إلى هذا، لم تكن الأجواء الداخلية السائدة أكثر وهناً مما هي عليه اليوم وهي تهدد البلاد بالانهيار الكامل. هذا الأمر وحده يشكل رادع رئيس لكل محاولات التصدي لانزلاق لبنان نحو محور المقاومة. في ظل الأوضاع الاقتصادية التي تمر بها البلاد، أي مغامرة باتجاه التصعيد والمزيد من الانقسامات والمواجهات يمكن أن تؤدي إلى انهيار الصرح على من فيه. ولعل هذا الواقع يشكل الرادع الأكبر الذي يمنع حزب الله ورعائه الإقليميين من ممارسة أشد الضغوط لأخذ لبنان بشكل كامل وعلني إلى محور المقاومة. ففي مواجهة العقوبات الخارجية التي لا تنفك تزداد وتتشدد، وفي ظل وضع مالي صعب نتيجة لتراجع المساعدات المالية

الإيرانية ومع الضائقة الاجتماعية التي تحدّد بشكل رئيس قاعدته الشعبية، يجد حزب الله نفسه مضطراً للتمسك بالوضع الراهن خوفاً على فقدان كل الانتصارات الإقليمية التي حققها كما شبه سيطرته الكاملة على لبنان بما لا يمكن بعدها إصلاحه.

على الجبهة العسكرية، يدرك حزب الله أيضاً أنه على خلاف عام ٢٠٠٦، أي حرب مع إسرائيل لن تبقى محصورة خاصة إذا ما ترافقت مع مواجهة مع إيران في أي مكان في المنطقة. إذا كان حزب الله قد طور قدراته العسكرية بما يدفع المخططين العسكريين الإسرائيليين للتفكير مرتين قبل الانخراط في حرب جديدة مع لبنان، يدرك الحزب في المقابل أنه إذا قررت إسرائيل أن الوقت قد حان لقطع دابر المشكلة، فستستخدم كل الوسائل الممكنة لتحقيق هذا الهدف. كل أشكال المحاكاة أشارت إلى أن أي مواجهة مع إسرائيل لن تكون محصورة في جنوب لبنان بل ستشمل المناطق اللبنانية كافة إضافة إلى أنها ستستهدف المنشآت الاقتصادية والأخطر أنه قد تنخرط فيها البيئات المعادية لحزب الله في الداخل اللبناني خصوصاً ضمن اللاجئين السوريين وقد يستخدم هؤلاء لضرب القواعد الخلفية للحزب وخلق جو معاد له في صفوف الذين سيضطرون إلى النزوح من الجنوب اللبناني.

في مواجهة هكذا سيناريوات سوداوية، تسعى جميع القوى السياسية اللبنانية بما فيها تلك التي تسعى إلى إبعاد البلاد عن محور المقاومة الإقليمي إلى الإبقاء على الوضع الراهن من باب تقييم كفتي الخسائر والمكاسب.

ومع ذلك، هذا الوضع الراهن لا يعني تآكلاً خفياً. الواقع يقول إن لبنان ينزلق بشكل تدريجي إن لم يكن نحو "محور المقاومة" فنحو معايير تبعد البلاد عن أسسه "الليبرالية المؤيدة للغرب". هذا الإنزلاق لا يحدث فقط في مسرح الحياة السياسية بل ينسحب أيضاً على الأنماط الاجتماعية والمجتمعية.

جوزيف باحوط:

جوزيف باحوط باحث زائر في برنامج كارنيغي للشرق الأوسط. تتركز أبحاثه على التطورات السياسية في لبنان وسورية، والتداعيات الإقليمية للأزمة السورية، وسياسات الهوية في أرجاء المنطقة.

تولّى باحوط سابقاً منصب مستشار دائم لوحدة تخطيط السياسات في وزارة الخارجية الفرنسية (٢٠٠٩-٢٠١٤). وكان أستاذاً في دراسات الشرق الأوسط في معهد الدراسات السياسية في باريس (٢٠٠٥-٢٠١٤)، وزميراً أولاً في الأكاديمية الدبلوماسية الدولية (٢٠٠٨-٢٠١٤). كما سبق أن عمل أستاذاً في علم الاجتماع السياسي والعلاقات الدولية، في جامعة القديس يوسف في بيروت (١٩٩٣-٢٠٠٤)، وباحثاً في مركز الدراسات والأبحاث حول الشرق الأوسط المعاصر ومقرّه بيروت (١٩٩٣-٢٠٠٠).

يشغل باحوط حالياً منصب زميل مشارك في مركز جنيف للسياسات الأمنية، وهو عضو في المجلس العلمي للمعهد الفرنسي للشرق الأدنى.

ألّف باحوط كتاباً عن مجتمع الأعمال السوري وآفاقه السياسية (١٩٩٤)، وكتاباً عن إعادة البناء السياسي في لبنان (١٩٩٨)، كما له مقالات عدة وفصول كتب. وهو معلق منتظم في وسائل الإعلام الأوروبية والعربية.